Tadabbur-e-Uloom-e-Islamia Research Journal (TUIRJ)
ISSN (Online) 2790-8879, ISSN (Print): 2790-8860

الإيثَار و أثره على الإنسان بحيثية الإيجابية في ضوء القرآن الكريم

Altruism and its impact on man in a positive manner in the light of the Holy Quran

Dr. Shaista Firduos
Department of Arabi
The Islamia University of Bahawalpur , Punjab, Pakistan
E mail: ariesiub@gmail.com

Abstract:
The heavenly books in general and the Qur'an in particular mentioned man more than once and in various places, and a Surah is also named after "Al-Insan" that includes the elements of man. The researcher cannot search the Holy Qur'an and all its interpretations in view of his ability in the sufficiency of sciences, the shortening of time and the wideness of field of research.

The first, for the sake of understanding and education, and man is in dire need of knowledge of his substance and components from which he was created, in order to feel the continuity of man. Therefore, we must know what are the elements and materials from which man was created. The Qur'an has facilitated the way for us to learn about it, and it is self-evident that these components were not exposed to them, if the Qur'an and other heavenly books have not exposed it, the mind and human perception would come to it, and questions about these elements are as follows:

What are the elements of man? In terms of what it is, and trying to find it, and with knowledge it suffers with, rather it is impossible to reach it because the mind is before the arrival of the law and its help is not independent to determine what is in the interest and what is in it that is harmful and corrupt:

"Read in the name of your Lord who created - He created man from a clot of blood".

This verse concerned itself with the components of man and is considered the first verse exposed to the narration of the components of man according to the majority of commentators, it is the first verse revealed to the Messenger, may God's prayers and peace be upon him (and it contains a warning about the beginning of creation from a clot, and that from His generosity, He taught man what he did not know, so He honored and privileged him, and this is the fate that distinguished (Abul-Bariyyah) Adam over the angels, and sometimes knowledge is in the minds and sometimes it is in the tongue, and sometimes it is in writing with eloquence, so it is mental, verbal and formal.

KeyWords: Arabic Literature, Qur'an, Human, Altruism, Positive Manner, Eloquence

التمهيد

إن العراق باعتباره مهد حضارة ما بين النهرين ومنطلق الأنبياء العظام، يتميز بثرائه الثقافي وعمق حضارته التي تضرب في أعماق التاريخ ، وفي ضوء ذلك فان العراق يتميز بعلو كعبه في مجال الشعر والشعراء من بين البلدان العربية ، وان التحري عن الآثار والمصادر التاريخية والأدبية يبرهن على أن أشهر الأدباء في العراق تميزوا بتضلعهم في جميع فنون الشعر على مدى التاريخ الإسلامي وفي جميع فتراته.

الأدَبُ لُغةً

يَرجِعُ أصْلُ كَلِمةِ "الأدَبِ" في اللُّغةِ إلى مَعنى الدُّعاءِ، ومِنه قيلَ للوَليمةِ: مَأدُبةٌ؛ لأنَّ صاحِبَها -وهُو الآدِبُ- يَدْعو النَّاسَ إليها. ومِن ذلك قولُ طَرَفةَ بنِ العبْدِ:

نحنُ في المَشْتاةِ نَدْعو الجَفَلى

لا تَرى الآدِبَ فينا يَنْتَقِرْ"-1

ومِنه سُمِّيَ التَّحلّي بالصِّفاتِ الحَميدةِ ودَعْوةُ النَّاسِ إليها والبُعدُ عنِ الصِّفاتِ الذَّميمةِ أدَبًا؛ قالَ الأزْهَريُّ: (والأدَبُ الَّذي يَتأدَّبُ به الأديبُ مِنَ النَّاسِ، سُمِّيَ أدَبًا؛ لأنَّه يَأدِبُ النَّاسَ الَّذين يَتعلَّمونَه إلى المَحامِدِ، ويَنْهاهم عن المَقابِحِ، يَأدِبُهم، أي: يَدْعوهم)"-2

ولذلك يُطلَقُ الأدَبُ على الظَّرْفِ وحُسْنِ التَّناوُلِ، وهو أدَبُ النَّفْسِ والدَّرْسِ، يُقالُ: أَدُبَ أدَبًا فهو أديبٌ"-3

وعلى المَعْنيَيْنِ يُحمَلُ قولُ عبْدِ اللهِ بنِ مَسْعودٍ رَضيَ اللهُ عنه: (إنَّ هذا القُرآنَ مَأدُبةُ اللهِ، فمَنِ اسْتَطاعَ أنْ يَتعلَّمَ مِنه شيئًا فلْيَفعَلْ؛ فإنَّ أصفَرَ البُيوتِ مِنَ الخَيْرِ البَيْتُ الَّذي ليس فيه مِن كِتابِ اللهِ تَعالى شيءٌ، وإنَّ البَيْتَ الَّذي ليس فيه مِن كِتابِ اللهِ شَيءٌ خَربٌ كخَرابِ البَيْتِ الَّذي لا عامِرَ له، وإنَّ الشَّيطانَ يَخرُجُ مِنَ البَيْتِ يَسمَعُ سورةَ البَقرةِ تُقرأُ فيه) "-4

فإمَّا أن يكونَ أرادَ بالمَأدُبةِ: ما يَصنَعُه للنَّاسِ، تَشْبيهًا بالمَأدُبةِ الَّتي يَصنَعُها الرَّجلُ يَدْعو النَّاسَ إليها، أو يكونَ أرادَ بها التَّأديبَ والتَّهْذيبَ"-5

الأدَبُ اصْطِلاحًا (بيْنَ القَديمِ والحَديثِ)

مَفْهومُ الأدَبِ في العَصْرِ القَديمِ: كَلِمةُ (أدَب) مِنَ الكَلِماتِ الَّتي تَطوَّرَ مَدْلولُها عبْرَ العُصورِ؛ ففي العَصْرِ الجاهِليِّ وعَصْرِ صدْرِ الإسلامِ اقْتَصرَ مَعنى كَلِمةِ "الأدَب" على ما يُرادُ بها مِن المَعنى اللُّغويِّ الدَّائِرِ بيْنَ الدَّعوةِ إلى الطَّعامِ، وبيْنَ تَهْذيبِ النَّفْسِ والتَّثْقيفِ والتَّحلّي بمَكارِمِ الأخْلاقِ، وكان الجانِبُ المَعنويُّ للكَلِمةِ أكْثَرَ ذُيوعًا وانْتِشارًا، وهو ما وَرَدَ على لِسانِ ابنِ مَسْعودٍ كما في الأثَرِ السَّابِقِ آنِفًا"-6

وأمَّا العَصْرُ الأُمَويُّ فقدْ عرَفَ لَونًا مِن التَّطوُّرِ الدَّلاليِّ لكَلِمةِ "الأدَب" حينَ صارَ الخُلَفاءُ على عِنايةٍ بتَربيةِ أولادِهم، وإعْدادِهم لوِلايةِ العَهْدِ، وتَولِّي الخِلافةِ، فعَهِدوا إلى أكابِرِ العُلَماءِ في عَهْدِهم ليَقوموا بتَربيةِ أبْنائِهم، فيُعَلِّموهم أُصولَ العُلومِ الشَّرعيَّةِ واللُّغويَّةِ، ويُطَبِّعوهم على تَمَرُّسِ السِّياسةِ وقِيادةِ النَّاسِ، وإرْشادِهم إلى ما يَليقُ وما لا يَليقُ. وقد شاعت تَسْميةُ هؤلاء العُلَماءِ بالمُؤدِّبينَ، فكان عامِرٌ الشَّعْبيُّ مُؤدِّبًا لأبْناءِ عبْدِ المَلِكِ بنِ مَرْوانَ، وكان عبْدُ الصَّمَدِ بنُ عبْدِ الأعلى مُؤدِّبًا للوَليدِ بنِ عبْدِ العَزيزِ، وكان الجَعْدُ بنُ دِرهَمٍ مُؤدِّبًا لمَروانَ بنِ مُحمَّدٍ"-7

وقد شاع اسْتِعمالُ كَلِمةِ الأدَبِ بالمَعنى الأخْلاقيِّ في عَصْرِ صدْرِ الإسلامِ وزَمانِ بَني أُميَّةَ والعَباسيِّينَ، حتَّى صدَّرَ المُصنِّفونَ "الأدَب" عُنوانًا لكُتُبِهم أو لِبعضِ أبوابِ كُتُبِهم الَّتي تَتَضمَّنُ صِلةَ الرَّحِمِ، وبِرَّ الوالِدَينِ، ورَحْمةَ النَّاسِ، والتَّصدُّقَ على المَساكينِ، والرِّفقَ، وحِفْظَ حقِّ الجارِ، ونَحْوَ ذلك، كما فَعَلَ البُخاريُّ في كِتابِه "الأدَب المُفرَد"، وفي تَرْجَمةِ

---

1 - بيتٌ من بحر الرَّمَل، لطرفةَ بنِ العَبدِ في ديوانه (ص: 43). والمَشتاةُ: أوقاتُ الشِّتاءِ، والجَفَلى: الجماعةُ، والآدِبُ: الدَّاعي إلى الوليمةِ، ينْتَقِر: يتخَيَّر

2 - الأزهري ،تهذيب اللغة،14/147

3 - ابن سيده ،المحكم والمحيط الأعظم،9/ 385

4 - عبد الرزاق في مصنفه(5998)

5 - القاسم بن سلام ،غريب الحديث،5/ 125

6 - شوقي ضيف،تاريخ الأدب العربي،1/ 7

7 - الرافعي ،تاريخ آداب العرب،1/ 21

كِتابِ "الأدَب" في صَحيحِه، ومُسلِمٌ في تَرْجَمةِ كِتابِ "الآداب"، وكِتابِ "البِرِّ والصِّلةِ والآدابِ" مِن صَحيحِه أيضًا، وكذا صَنَعَ أبو داودَ والتِّرْمِذيُّ وابنُ ماجه وغيْرُهم"-8

إلَّا أنَّه معَ بدايةِ العَصْرِ العَبَّاسيِّ تَطوَّرَ مُصْطلَحُ الأدَبِ تَطوُّرًا مَلْحوظًا؛ إذ كانَ مِن نَتيجةِ النَّهضةِ العِلميَّةِ والثَّقافيَّةِ آنَذاك أن أصْبَحَ الأدَبُ عَلَمًا على لَونٍ مِن ألوانِ الكَلامِ والكِتابةِ، وعِلمًا مِن عُلومِها، وهو كلُّ كَلامٍ بَليغٍ مِن الشِّعرِ والنَّثرِ، وما اتَّصلَ بهما مِن الشَّرحِ والنَّقْدِ والتَّعْليقِ ونَحْوِه"-9

ولِهذا ذَكَرَ ابنُ خَلْدونَ في تَعْريفِ الأدَبِ: (هذا العِلمُ لا مَوْضوعَ له يَنظُرُ في إثْباتِ عَوارِضِه أو نَفْيِها، وإنَّما المَقْصودُ مِنه عنْدَ أهْلِ اللِّسانِ ثَمَرتُه، وهي الإجادةُ في فَنَّيِ المَنْظومِ والمَنْثورِ على أساليبِ العَربِ ومَناحيهم، فيَجْمعونَ لذلِك مِن كَلامِ العَربِ ما عَساه تَحصُلُ به الكَلِمةُ مِن شِعرٍ عالي الطَّبَقةِ، وسَجْعٍ مُتساوٍ في الإجادةِ، ومَسائِلَ مِن اللُّغةِ والنَّحْوِ مَبْثوثةٍ في أثْناءِ ذلك مُتَفرِّقةٍ، يَستقرِئُ مِنها النَّاظِرُ في الغالِبِ مُعظَمَ قَوانينِ العَربيَّةِ، معَ ذِكْرِ بعضٍ مِن أيَّامِ العَربِ، يُفهَمُ به ما يَقَعُ في أشْعارِهم مِنها، وكذلك ذِكْرُ المُهِمِّ مِن الأنْسابِ الشَّهيرةِ والأخْبارِ العامَّةِ. والمَقْصودُ بذلك كلِّه ألَّا يَخْفى على النَّاظِرِ فيه شيءٌ مِن كَلامِ العَربِ وأساليبِهم ومَناحي بَلاغتِهم إذا تَصفَّحَه؛ لأنَّه لا تَحصُلُ المَلَكةُ مِن حِفْظِه إلَّا بعْدَ فَهْمِه، فيُحتاجُ إلى تَقْديمِ جَميعِ ما يَتوقَّفُ عليه فَهْمُه، ثُمَّ إنَّهم إذا أرادوا حَدَّ هذا الفَنِّ قالوا: "الأدَبُ هو حِفْظُ أشْعارِ العَربِ وأخْبارِها، والأخْذُ مِن كلِّ عِلمٍ بطَرَفٍ"؛ يُريدون: مِن عُلومِ اللِّسانِ أو العُلومِ الشَّرعيَّةِ مِن حيثُ مُتونُها فقط، وهي القُرآنُ والحَديثُ؛ إذ لا مَدخَلَ لغيْرِ ذلك مِن العُلومِ في كَلامِ العَربِ إلَّا ما ذهَبَ إليه المُتأخِّرونَ عنْدَ كَلَفِهم بصِناعةِ البَديعِ مِن التَّوريةِ في أشْعارِهم، وتَرَسُّلِهم بالاصْطِلاحاتِ العِلميَّةِ، فاحتاجَ صاحِبُ هذا الفَنِّ حينَئذٍ إلى مَعْرفةِ اصْطِلاحاتِ العُلومِ؛ ليكونَ قائِمًا على فَهْمِها)"-10

فنَجِدُ مَثَلًا أبا العبَّاسِ المُبَرِّدَ إمامَ اللُّغةِ المُتوفَّى سَنةَ 258هـ يُؤلِّفُ كِتابًا يُسمِّيه: "الكامِلَ في اللُّغةِ والأدَبِ"، يقولُ في مُقدِّمتِه: (هذا كِتابٌ ألَّفْناه، يَجمَعُ ضُروبًا مِن الآدابِ ما بيْنَ كَلامٍ مَنْثورٍ، وشِعْرٍ مَوْصوفٍ، ومَثَلٍ سائِرٍ، ومَوْعظةٍ بالِغةٍ، واخْتِيارٍ مِن خُطبةٍ شَريفةٍ، ورِسالةٍ بَليغةٍ...) ، وغيْرُ ذلك الكَثيرُ.

بل إنَّ الأمْرَ قدِ استَتبَّ بعْدَ ذلك واشتَهَرَتْ تَسْميةُ الأعْمالِ الشِّعريَّةِ والنَّثريَّةِ بالأدَبِ، حتَّى قال المُتَنبِّي مُفاخِرًا:

أنا الَّذي نظَرَ الأعْمى إلى أدَبي

وأسمَعَتْ كَلِماتي مَنْ بِهِ صَمَمُ"-11

مَفْهومُ الأدَبِ في العَصْرِ الحَديثِ

للأدَبِ في الاصْطِلاحِ الحَديثِ مَعنيان بارِزان؛ مَعنًى عامٌّ، وآخَرُ خاصٌّ.

فيُطلَقُ الأدَبُ في المَعنى العامِّ على كُلِّ ما أنْتَجَه العَقْلُ الإنْسانيُّ في أيِّ مَيْدانٍ مِن مَيادينِ العُلومِ والفُنونِ؛ كالفَلسفةِ والمَنطِقِ وعِلمِ الاجتِماعِ والرِّياضيَّاتِ وعُلومِ الطَّبيعةِ، وكذا فُنونُ الشِّعرِ والكِتابةِ ونَحْوُها، وهو بِهذا المَعنى مُرادِفٌ لمُصْطلَحِ الثَّقافةِ"-12

ومِن هذا المَنْحى نَجِدُ كارل بروكلمان يقولُ: (يُمكِنُ إطلاقُ لفْظِ الأدَبِ بأوْسَعِ مَعانيه على كُلِّ ما صاغَه الإنسانُ في قالَبٍ لُغويٍّ؛ ليُوصِلَه إلى الذَّاكِرةِ)"-13

8 - الرافعي ،تاريخ آداب العرب،1/ 23

9 - الرافعي ،تاريخ آداب العرب،1/ 23

10 - أبو العباس المبرد ،الكامل في اللغة والأدب، 1/ 5

11 - بيتٌ من بَحرِ البسيط لأبي الطيب المتنبي في ديوانه (ص: 323)

12 - كارل بروكلمان ،تاريخ الأدب العربي،1/ 3

وقد سبَقَ إلى ذلك الشُّمولِ بعضُ عُلَماءِ الدَّولةِ العبَّاسيَّةِ قَديمًا، كما يَظهَرُ مِن تَأليفِ كُشاجِمَ؛ شاعِرِ الدَّولةِ الحَمْدانيَّةِ وطبَّاخِ سَيْفِ الدَّولةِ كِتابَه: "أدَب النَّديم"؛ إذ أوْدَعَه ما لا يَسْتغني عنه شَريفٌ، ولا يَجوزُ أن يُخِلَّ به ظَريفٌ وظهَرَ ذلك أيضًا في قَولِ أبي القاسِمِ الشَّجَريّ، أحَدِ شُعراءِ القَرْنِ الرَّابعِ الهِجريّ:

إنْ شِئْتَ تَعلَمُ في الآدابِ مَنزِلتي
وأنَّني قد عَداني العِزُّ وَالنِّعَمُ
فالطَّرْفُ والسَّيْفُ والأَوْهاقُ تَشهَدُ لي
والعُودُ والنَّرْدُ والشِّطْرَنْجُ والقَلَمُ

فأدخَلَ في الآدابِ فُنونًا وألْعابًا وغيْرَ ذلك"[13].

وأمَّا المَعنى الخاصُّ للأدَبِ فيُرادُ به: (النِّتاجُ العاطِفيُّ الَّذي يُعبِّرُ فيه صاحِبُه بالألفاظِ عن شُعورٍ عاطِفيٍّ، وفيه إثارةٌ للقارِئِ والسَّامِعِ، أيْ ذلِك التَّعبيرُ العاطِفيُّ المُثيرُ، وهذا يكونُ عادةً في الشِّعْرِ الرَّائِعِ والنَّثْرِ البَليغ)"[14].

وعلى المَعنى الخاصِّ وجَدْنا العَديدَ مِن تَعْريفاتِ الأدَبِ تَختلِفُ في مَبْناها، إلَّا أنَّها في الغالِبِ تَتَّفقُ في المَعنى، ومِن ذلك:

قيل: (أدَبُ لُغةِ كُلِّ أُمَّةٍ: هو ما أُودِعَ نَثْرها وشِعْرَها مِن نَتائِجِ عُقولِ أبنائِها، وأمْثِلةِ طِباعِهم، وصُوَرِ أخيلَتِهم، ومَبلَغِ بَيانِهم، ممَّا شأنُه أن يُهذِّبَ النَّفْسَ، ويُثقِّفَ العَقْلَ، ويُقوِّمَ اللِّسانَ)"[15].

ويُعرِّفُه د. شوقي ضيف بأنَّه: (الكَلامُ الإنْشائيُّ البَليغُ، الَّذي يُقصَدُ به التَّأثيرُ في عَواطِفِ القُرَّاءِ والسَّامِعين، سواءٌ أكان شِعرًا أم نَثْرًا)"[16].

ويَرى د. مُحمَّد غنيمي أنَّ الأدَبَ حتَّى يَصِحَّ أن يُقالَ عنه أدَبٌ لا بُدَّ أن يَتوفَّرَ على عُنْصُرَينِ؛ الفِكرةِ، والقالَبِ الفنِّيِّ الَّذي تُصاغُ فيه؛ قال: (أمَّا الأدَبُ فكَثيرًا ما اختَلَفَ الباحِثون في تَعْريفِه، وطالَ جِدالُهم فيه... ولكنْ مَهْما يَكنْ بيْنَهم مِن اخْتِلافٍ فهُمْ لا يُمارونَ في تَوافُرِ عُنْصرَينِ في كلِّ ما يَصِحُّ أنْ نُطلِقَ عليه أدَبًا؛ هُما: الفِكرةُ وقالَبُها الفنِّيُّ، أو المادَّةُ والصِّيغةُ الَّتي تُصاغُ فيها. وهذانِ العُنْصُرانِ يَتمثَّلانِ في جَميعِ صُوَرِ الإنتاجِ الأدَبيّ؛ سَواءٌ أكانَ تَصْويرًا لإحْساساتِ الشَّاعِرِ وخَلَجاتِ نفْسِه تِجاهَ عَظَمةِ الكَوْنِ وما فيه مِن جَمالٍ وأسرارٍ، أم كانَ تَعْبيرًا عن أفكارِ الكاتِبِ في الإنسانِ والمُجْتمَعِ، وسَواءٌ كان ذلك الإنتاجُ الأدَبيُّ رِسالةً أو مَقالةً، أم مَسْرحيَّةً أو قِصَّةً...)

ويُعرِّفُه د. عُمَر فرُّوخ بقولِه: (الأدَبُ هو المَعنى المُبتكَرُ في اللَّفظِ الفَصيحِ، والتَّعْبيرِ المَتينِ، والأُسلوبِ البارِعِ، والخَيالِ الواسِعِ)"[17].

والمَلْحوظُ في جَميعِ تلك التَّعْريفاتِ أنَّها تَحصُرُ الأدَبَ في الفِكرةِ وطَريقةِ التَّعْبيرِ؛ فلا بُدَّ في الفِكرةِ مِن أن تكونَ مُعبِّرةً عن أمْرٍ نفْسيٍّ يَجِدُه الأديبُ في نفْسِه، ويُعبِّرُ مِن خِلالِه عن عاطِفتِه تِجاهَ الحَياةِ أو الإنْسانِ أو المُجتَمَعِ وقَضاياه، وفي الطَّريقةِ والأُسلوبِ أن يكونَ بَليغًا يُؤدِّي الغَرَضَ، ويُطابِقُ مُقْتضى الحالِ، دونَ الإغْرابِ والإخْلالِ، والإطْنابِ المُمِلِّ"[18].

وهذا التَّعْريفُ الخاصُّ للأدَبِ هو الَّذي عليه اللُّغويُّونَ وأهْلُ البَلاغةِ والأدَبِ"[19].

---

13 ـ هي الجِبالُ التي توضَعُ في أعناقِ الإبلِ والخيلِ، فتُؤخذُ منها لئلَّا تهرُبَ، مفردُها: وَهَق. ينظر: ((جمهرة اللغة)) لابن دريد (2/ 980)، المخصص(2/ 473)

14 ـ الرافعي ،تاريخ آداب العرب،1/ 24

15 ـ علي الجندي ،تاريخ الأدب الجاهلي،ص91

16 ـ مصطفى العناني وأحمد السكندري ،الوسيط في الأدب العربي وتاريخه،ص4

17 ـ شوقي ضيف ،تاريخ الأدب العربي،1/ 7

18 ـ محمد غنيمي هلال ،الأدب المقارن،ص10

19 ـ عمر فروخ ،تاريخ الأدب العربي،1/ 44

فائدةُ دِراسةِ الأدَبِ

دِراسةُ الأدَبِ العَربيّ ليست مِن قَبيلِ التَّرَفِ العِلميّ فحَسْبُ، بل لها فَوائِدُ غَزيرةٌ تَعودُ على الفَرْدِ والمُجْتمَعِ على حَدٍّ سواءٍ؛ إذِ الأدَبُ ما هو إلَّا تَعْبيرٌ عن النَّفْسِ وآمالِها وآلامِها، وعن الواقِعِ بمُكَوِّناتِه ومُشْكِلاتِه، وعن القِيَمِ بأُصولِها وفُروعِها وتَشابُكِها معَ الحَياةِ... وهذا كلُّه بأُسلوبٍ مُنمَّقٍ يَجذِبُ القارِئَ والمُستمِعَ ويُؤثِّرُ فيه، فنحن إذْ نَدرُسُ أدَبَ الأُمَّةِ العَربيَّةِ إنَّما نَدرُسُ خُلاصةَ عُقولِها ونَفْسيَّاتِها وواقِعِها وتَجرِبتِها الطَّويلةِ في الحَياةِ (فأدَبُ أيِّ أُمَّةٍ هو نِتاجُ عَواطِفِها ومَشاعِرِها وعُقولِها، وهو عُصارةُ مِزاجِها النَّفْسيّ، وطابَعُ رُوحِها... فهو خُلاصةُ وِجهةِ نَظَرِها في الحَياةِ مُستمَدَّةً مِن داخِلِها)"[20].

وانْطِلاقًا مِن هذه المَعاني يُمكِنُنا إجْمالُ فَوائِدِ دِراسةِ الأدَبِ فيما يأتي:

1- دِراسةُ الأدَبِ تُعِينُ على فَهْمِ اللُّغةِ العَربيَّةِ، وتَذوُّقِها، والوُقوفِ على تاريخِها، وتاريخِ الفُصَحاءِ والبُلَغاءِ مِن أهْلِها، على اختِلافِ عُصورِهم وأحْوالِهم وأساليبِهم.

2- تَكسِبُ دِراسةُ الأدَبِ صاحِبَها المَلَكةَ اللُّغويَّةَ السَّليمةَ، وتَرْتقي بجَودةِ خِطابِه، ورَصانةِ تَعْبيرِه.

3- تُنَمّي دِراسةُ الأدَبِ في نفْسِ صاحِبِها المَعانيَ الإنْسانيَّةَ الرَّاقيةَ، وتَكسِبُه الحِسَّ الجَماليَّ، فتَرْتقي به في جَوانِبِ الحَياةِ المَعْنويَّةِ والرُّوحيَّةِ، كما ارتَقَتْ بالجَوانِبِ اللُّغويَّةِ التَّعْبيريَّةِ عِنْدَه.

4- تُعِينُ على مَعْرفةِ أسْبابِ ارْتِقاءِ اللُّغةِ وانْحِطاطِها، على اخْتِلافِ وتَنوُّعِ هذه الأسْبابِ؛ لتُصبِحَ هذه المَعْرفةُ وَسيلةً لسُلوكِ سُبُلِ الارْتِقاءِ، واجْتِنابِ أسْبابِ الانْحِطاطِ"[21].

5- تَتَبُّعُ تاريخِ الأدَبِ والأُدباءِ مَصدَرٌ غَنِيٌّ مِن مَصادِرِ دِراسةِ التَّاريخِ بوَجْهٍ عامٍّ، والوُقوفِ على كَثيرٍ مِن أحْداثِه على لِسانِ مَن عاصَرَ وعايَشَ هذه الأحْداثَ.

6- تَجْسيدُ الأدَبِ للقِيَمِ الإنْسانيَّةِ والتَّجارِبِ الحَياتيَّةِ المُخْتلِفةِ في كلِّ عَصْرٍ مِن العُصورِ يَكسِبُ الدَّارِسَ الفَهْمَ العَميقَ للقِيَمِ وللإنْسانِ بصورةٍ عَمَليَّةٍ مَلْموسةٍ؛ إذ يُمكِنُ القَولُ بأنَّ أدَبَ أيِّ أُمَّةٍ إنَّما يُشكِّلُ ضَميرَ الأُمَّةِ، إضافةً إلى القِيَمِ الفِكريَّةِ والرُّوحيَّةِ الَّتي تَعْتنِقُها، إضافةً لجَوهَرِ اللُّغةِ.

7- الأدَبُ أحَدُ أعظَمِ أسْبابِ حِفْظِ اللُّغةِ، واللُّغةُ بمَنزِلةِ العَمودِ الفِقْريِّ الَّذي يَشُدُّ جَسَدَ أبْناءِ الأُمَّةِ، ويَحفَظُ عليه تَماسُكَه وثَباتَه؛ ومِن هذا المَنْحى فإنَّ دِراسةَ الأدَبِ سَبيلٌ لحِفْظِ وَحْدةِ الأمَّةِ واسْتِمرارِها"[22].

أقْسامُ الأدَبِ

عُنِيَ العُلَماءُ بالأدَبِ والأُدَباءِ عبْرَ العُصورِ، وكَثُرَتِ المُؤلَّفاتُ والدِّراساتُ المُتعلِّقةُ بهذا الشَّأنِ، وقد تَعدَّدتْ مَداخِلُ العُلَماءِ لتَقْسيمِ الأدَبِ، ودِراستِه دِراسةً عِلميَّةً وافيةً. وهناك اتِّجاهانِ رَئيسانِ نَلمَحُهما في تَقْسيمِ الأدَبِ العَربيّ: الأوَّلُ: التَّقْسيمُ الزَّمَنيُّ التَّاريخيُّ، والثَّاني: التَّقْسيمُ الفنِّيُّ المَوْضوعيُّ.

التَّقْسيمُ التَّاريخيُّ للأدَبِ

يُعَدُّ هذا التَّقْسيمُ المَدخَلَ الأشْهَرَ لدِراسةِ الأدَبِ دِراسةً تاريخيَّةً، وفيه يُقسَّمُ تاريخُ الأدَبِ إلى عُصورٍ أو مَراحِلَ تاريخيَّةٍ، وفي كلِّ مَرْحلةٍ يَقِفُ فيها الباحِثُ على تاريخِ الأدَبِ العَربيّ بأحْداثِه ومَوْضوعاتِه ورِجالِه وآثارِه، وفي أثْناءِ ذلك يَرصُدُ تَطوُّرَ الأدَبِ ومَراحِلَ ازْدِهارِه وخُمولِه مُنْذُ القِدَمِ، وعَبْرَ العُصورِ التَّاريخيَّةِ الكُبرى الَّتي مَرَّ بها حتَّى يومِنا هذا.

وقد درَجَ مَنْ أرَّخَ للأدَبِ على هذه الطَّريقةِ -في الأغْلَبِ- على تَقْسيمِ تاريخِ الأدَبِ إلى عُصورٍ رَئيسةٍ، وهي:

---

20 ـ أنور الجندي ،خصائص الأدب العربي في مواجهة نظريات النقد الأدبي الحديث،ص16

21 ـ مصطفى العناني وأحمد السكندري ،الوسيط في الأدب العربي وتاريخه،ص5

22 ـ أحمد حسن الزيات ،تاريخ الأدب العربي،ص4

1ـ العَصْرُ الجاهِليُّ: وهو الحِقبةُ الَّتي تَسبِقُ ظُهورَ الإسلامِ بقُرابةِ قَرنَينِ مِنَ الزَّمانِ.
2ـ العَصْرُ الإسْلاميُّ: ويَبدَأُ هذا العَصْرُ بظُهورِ الإسلامِ، ويَمتَدُّ إلى نِهايةِ عَهْدِ الخُلَفاءِ الرَّاشِدينَ، وبدايةِ الدَّولةِ الأُمَويَّةِ.
3ـ العَصْرُ الأُمَويُّ: ويَبدَأُ بقِيامِ الدَّولةِ الأُمَويَّةِ بدايةً مِن سَنةِ 41هـ، ويَمتَدُّ إلى سُقوطِها عامَ 132هـ.
4ـ العَصْرُ العبَّاسيُّ: ويَبدَأُ هذا العَصْرُ بقِيامِ الدَّولةِ العبَّاسيَّةِ سَنةَ 132هـ، ويَنْتهي بسُقوطِ بَغْدادَ على يَدِ التَّتارِ سَنةَ 656هـ.

ومِن المُؤرِّخين مَن يُقسِّمُ هذا العَصْرَ إلى قِسمَينِ:
العَصْرُ العبَّاسيُّ الأوَّلُ: وهو قُرابةُ مِئةِ سَنةٍ مِن قِيامِ الدَّولةِ العبَّاسيَّةِ.
العَصْرُ العبَّاسيُّ الثَّاني: وهو بَقيَّةُ عُمرِ الدَّولةِ العبَّاسيَّةِ حتَّى سُقوطِها.
5ـعَصْرُ الدُّوَلِ والإماراتِ: وتَتَنوَّعُ مُسمَّياتُ الكُتَّابِ لِهذا العَصْرِ، وهي على اخْتِلافِ مُسمَّياتِها تُعبِّرُ عن المُدَّةِ ما بيْنَ سُقوطِ الخِلافةِ العبَّاسيَّةِ إلى خُروجِ الاحْتِلالِ الفَرنسيِّ مِن مِصْرَ، وقِيامِ حُكْمِ مُحمَّد علي باشا.

وفي هذه المُدَّةِ قامَتِ العَديدُ مِن الدُّوَلِ والإماراتِ في العالَمِ الإسلاميِّ؛ كالفاطِميِّينَ والأيُّوبِيِّينَ، والمَماليكِ والعُثْمانيِّينَ، وغيْرِهم.
6ـالعَصْرُ الحَديثُ: وهو العَصْرُ الَّذي يَبدَأُ بنِهايةِ الاحْتِلالِ الفَرنسيِّ لِمصْرَ، وقِيامِ حُكْمِ مُحمَّد علي باشا بعْدَه، وذلِك في مَطلَعِ القَرْنِ التَّاسِعَ عشَرَ المِيلاديِّ، ويَمتَدُّ إلى يومِنا هذا.

وهذا التَّقْسيمُ التَّاريخيُّ هو الأشْهَرُ، على اخْتِلافٍ يَسيرٍ بيْنَ الباحِثينَ في مُسمَّياتِ بعضِ العُصورِ، وتَحْديدِ بداياتِها ونِهاياتِها"ـ23

التَّقْسيمُ المَوْضوعيُّ

والمَقْصودُ به تَقْسيمُ الأدَبِ العَربيِّ باعْتِبارِ مَوْضوعاتِه إلى قِسْمَينِ؛ (شِعْر ونَثْر). والشِّعرُ هو الكَلامُ المَوْزونُ المُقفَّى، الَّذي يَخضَعُ لقَواعِدَ وقَوانينَ مُعيَّنةٍ، لا يُلزَمُ النَّثْرُ بها. وأمَّا النَّثْرُ فعلى النَّقيضِ؛ حيثُ يَنعَمُ بالحُريَّةِ دونَ تَقيُّدٍ بقَواعِدِ الوَزْنِ والقافيةِ، معَ اتِّسامِه بحُسْنِ الصِّياغةِ وجَمالِ الأداءِ؛ ولِهذا فلا تَجوزُ فيه مُخالَفةُ اللُّغةِ العَربيَّةِ، خِلافًا للشِّعرِ؛ حيثُ يَجوزُ فيه لضَرورةِ الوزنِ أن يُخالِفَ القَواعِدَ.

ولكلٍّ مِنَ الشِّعْرِ والنَّثْرِ أنْواعٌ وصُوَرٌ مُتعدِّدةٌ، ولكلٍّ رِجالُه الَّذين أثْرَوُا الحَياةَ الأدَبيَّةَ العَربيَّةَ بعَطاءاتِهم.

مَصادِرُ الأدَبِ

المَصادِرُ الأدَبيَّةُ هي الكُتُبُ والمَوْسوعاتُ الَّتي حَوَتْ كلَّ ما يَتَّصِلُ بالأدَبِ العَربيِّ مِن عُلومٍ وفُنونٍ، والَّتي يَستمِدُّ مِنها الباحِثُ في الأدَبِ العَربيِّ مادَّةَ بَحْثِه، ويَجِدُ طالِبُ العِلمِ فيها بُغْيتَه.

والمكتبةُ الأدَبيَّةُ العَربيَّةُ تَحْوي كمًّا هائِلًا مِنَ المَصادِرِ الأدَبيَّةِ، الَّتي يَجِدُ فيها كلُّ مَن يَبحَثُ عن أيِّ فَرْعٍ مِن فُروعِ الأدَبِ بُغْيتَه، ومِن أشْهَرِ هذه المَصادِرِ ما يأتي:

1ـ كُتُبُ الدَّواوينِ والأعْمالِ الشِّعريَّةِ: سواءٌ كانَتْ جامِعةً لشِعرِ شاعِرٍ بعَيْنِه؛ جاهِليًّا كان؛ كامْرِئِ القَيْسِ وزُهَيْرٍ وعَنْتَرةَ والأعْشى وغَيْرِهم، أو مُخَضْرَمًا؛ كحَسَّانَ بنِ ثابِتٍ وكَعْبِ بنِ زُهَيْرٍ، أو إسلاميًّا؛ كجَريرٍ والفَرَزْدَقِ، أو عبَّاسيًّا؛ كالمُتَنبِّي وابنِ الرُّوميِّ والبُحْتُريِّ وأبي تَمَّامٍ، أو مُحْدَثًا، مِثلُ: شَوقي والبارودي وحافِظٍ وجُبْرانَ وغيْرِهم.

ورُبَّما كانَتْ جامِعةً لعِدَّةِ شُعَراءَ، مِثلُ ديوانِ الهُذَليِّينَ الَّذي يَجمَعُ شِعْرَ شُعَراءِ قَبيلةِ هُذَيلٍ، وعلى رأسِهم أبو ذُؤَيبٍ الهُذَليُّ، ومِثلُ المُعَلَّقاتِ الَّتي حَوَتْ قَصائِدَ مِن عُيونِ الشِّعرِ الجاهِليِّ.

2ـ كُتُبُ الاخْتِياراتِ الأدَبيَّةِ:

23 ـ أحمد حسن الزيات ،تاريخ الأدب العربي،ص5

وهي تلك الكُتُبُ الَّتي اخْتارَ أصْحابُها عُيونًا مِنَ الشِّعرِ والأدَبِ، سواءٌ في الشِّعرِ الجاهِليّ أو ما بعْدَه، وحَظِيتْ بإعْجابِ الرُّواةِ وعُمومِ النَّاسِ، وعَمَدَ أصْحابُ تلك الكُتُبِ إلى ذِكْرِها وشَرْحِها.

ومِن تلك الكُتُبِ:

(أ) المُفَضَّلِيَّاتُ: للمُفضَّلِ بنِ مُحمَّدِ بنِ يَعْلى بنِ سالِمٍ الضَّبِّيّ، المُتوفَّى سَنةَ 168هـ وهو مِن أقْدَمِ الكُتُبِ الَّتي وصَلَتْنا في الشِّعرِ الجاهِليّ. اخْتارَ فيها المُفضَّلُ بعضًا مِن نَوادِرِ الشِّعْرِ العَربيّ، ثم شرَحه أبو بكرِ بنُ الأنباري المتوفَّى (328هـ)، كما شرَحه أيضًا الأستاذانِ أحمد شاكِر وعبد السلام هارُون في تحقيقِهما له.

(ب) الأصْمَعيَّاتُ: لأبي سَعيدٍ عبْدِ المَلِكِ بنِ قُرَيبٍ الأصْمَعيّ، المُتوفَّى سَنةَ (216هـ)، وقدِ اسْتَكمَلَ في كِتابِه هذا جُهْدَ المُفضَّلِ الضَّبِّيّ، وأتى بما أخَلَّ به ممَّا يَراه الأصْمَعيُّ مِن عُيونِ الشِّعرِ العَربيّ وأجْوَدِه كذلك.

(ج) العِقْدُ الفَريدُ: لأبي عُمَرَ، شِهابِ الدِّينِ أحْمَدَ بنِ مُحمَّدِ بنِ عبْدِ رَبِّه، المُتوفَّى سَنةَ (328هـ)، ذكَرَ فيها أيَّامَ العَربِ ووَقائِعَهم، وما قيلَ في ذلِك مِن شِعْرٍ، وأصَّلَ لبعضِ القَصائِدِ الجاهِليَّةِ، فذَكَرَ مُناسَبَتَها وما قيلَتْ فيه، كما ذَكَرَ قِصةَ "دارةِ جُلْجُل" معَ امْرِئِ القَيْسِ، وغَيْرَها، واعْتَنى بذِكْرِ ما وقَعَ بيْنَ الأُدَباءِ مِنَ المُلَحِ والنَّوادِرِ.

كُتُبُ تَراجِمِ الأُدَباءِ والشُّعَراءِ:

وهي تلك الكُتُبُ الَّتي اعْتَنتْ بطَبَقاتِ الشُّعَراءِ، وذِكْرِ أخْبارِهم وسِيَرِهم، وتَرْجمةِ حَياتِهم، معَ انْتِخابِ أفْضَلِ أشْعارِهم، ومِن ذلِك:

(أ) جَمْهَرةُ أشْعارِ العَربِ: لأبي زَيْدٍ، مُحمَّدِ بنِ أبي الخَطَّابِ القُرَشيّ ؛ حيثُ وقَفَ فيه على أخْبارِ بعضِ الشُّعَراءِ الكِبارِ؛ كزُهَيرٍ وامْرِئِ القَيْسِ، والأعْشى ولَبيدٍ، وعَمْرِو بنِ كُلْثومٍ وغيْرِهم، وتَناوَلَ شيئًا مِن أشْعارِهم ممَّا انْتَقاه بنفْسِه مِن أفْضَلِ ما قالوا، وتَناوَلَ تَبايُنَ الرُّواةِ والعُلَماءِ في أفْضَلِ الشُّعَراءِ، ثُمَّ ذَكَرَ المُعَلَّقاتِ، ثُمَّ اخْتارَ بعضًا مِن عُيونِ الشِّعرِ، سمَّى بعضَها المُجَمْهَراتِ، وبعضَها المُذَهَّباتِ، وبعضَها المَراثِيَ، وبعضَها المَشوباتِ، وأُخرى المُلْحَماتِ.

(ب) طَبَقاتُ فُحولِ الشُّعَراءِ: لأبي عبْدِ اللهِ، مُحمَّدِ بنِ سَلَّامٍ الجُمَحيّ، المُتوفَّى سَنةَ (232هـ)، وقد قام بانْتِخابِ الشُّعَراءِ واخْتِبارِ شِعْرِهم، حتَّى جعَلَهم على طَبَقاتٍ ومَراتِبَ، فجعَلَ لشُعَراءِ الجاهِليَّةِ عَشْرَ طَبَقاتٍ، في كلِّ طَبَقةٍ أرْبَعةُ شُعَراءَ، وكذا جعَلَ لشُعَراءِ الإسلامِ؛ فجعَلَ في الطَّبَقةِ الأُولى لشُعَراءِ الجاهِليَّةِ امْرَأَ القَيْسِ، وزُهَيْرَ بنَ أبي سُلْمى، والأعْشى، والنَّابِغةَ الذُّبْيانيَّ، وفي الطَّبَقةِ الأُولى لشُعَراءِ الإسلامِ جَريرًا، والفَرَزْدَقَ، والأخْطَلَ، والرَّاعيَ النُّمَيريَّ. وذَكَرَ أفْضَلَ ما قالَه كلُّ شاعِرٍ مِنَ الشُّعَراءِ، كلٌّ في مَوضِعِه وطَبَقتِه.

(ج) الشِّعرُ والشُّعَراءُ: لأبي مُحمَّدٍ، عبْدِ اللهِ بنِ مُسلِمِ بنِ قُتَيْبةَ الدِّينَوَريّ، المُتوفَّى سَنةَ (276هـ)، عُنِيَ ابنُ قُتَيْبةَ بذِكْرِ تَراجِمِ الشُّعَراءِ، فتَرْجَمَ لمِئَتَيْ شاعِرٍ وسِتَّةِ شُعَراءَ، يَذكُرُ أسْماءَهم وأنْسابَهم وأخْبارَهم ووَفاتَهم، ويَنتخِبُ مِن أشْعارِهم.

كُتُبُ التَّاريخِ الأدَبيّ

وهي تلك الكُتُبُ الَّتي اسْتَعرَضَتْ تاريخَ الأدَبِ مِن العَصْرِ الجاهِليّ، وتَدرَّجَتْ به عَبْرَ العُصورِ، ووقَفَتْ على أبْرَزِ رِجالِه، وأبْرَزِ أعْمالِهم، ومِن أبْرَزِ هذه الكُتُبِ مَوْسوعةُ شَوقي ضَيف في تاريخِ الأدَبِ العَربيّ، وكذا مَوْسوعةُ لويس شيخو في تاريخِ الأدَبِ العَربيّ.

كُتُبُ البَلاغةِ والنَّقْدِ:

وهي مادَّةٌ خِصبةٌ تُوقِفُ الدَّارِسَ على أدَواتِ الأديبِ، وما يَنْبغي أن يُحصِّلَه ليَتَمكَّنَ مِنَ الإبْداعِ الأدَبيّ، ومِن أبْرَزِ هذه الكُتُبِ:

(أ) البَيانُ والتَّبْيينُ: لأبي عُثْمانَ، عَمْرِو بنِ بَحْرِ بنِ مَحْبوبٍ الكِنانيّ، المَشْهورِ بالجاحِظِ، المُتَوفَّى سَنةَ 255هـ وهو مِن أشْهَرِ الكُتُبِ في اللُّغةِ والأدَبِ، وقد تَحدَّثَ فيه الجاحِظُ عن مَفْهومِ البَيانِ وأنْواعِه، وآفاتِ اللِّسانِ، والبَلاغةِ والفَصاحةِ، ودعَّمَ ذلك بعَرْضٍ مُقْتَطَفاتٍ مِنَ الخُطَبِ والرَّسائِلِ والأشْعارِ والأحاديثِ، وتَكلَّمَ على أصْلِ اللُّغةِ وقيمةِ الشِّعرِ، وغيْرِ ذلِك.

(ب) الكامِلُ في اللُّغةِ والأدَبِ: لأبي العبَّاسِ، مُحمَّدِ بنِ يَزيدَ المُبَرِّدِ، المُتَوفَّى (285هـ)، وقد تَناوَلَ في الكِتابِ مُلَحًا مِن أخْبارِ الأُدَباءِ وأشْعارِهم، استَهَلَّ الكِتابَ ببعضِ بَلاغاتِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ثُمَّ ذَكَرَ شيئًا مِن كِتاباتِ الخُلَفاءِ الرَّاشِدين وخُطَبِهم، وما فيها مِنَ البَلاغةِ والفَصاحةِ.

(ج) كِتابُ الصِّناعتَينِ: الكِتابة والشِّعْر: لأبي هِلالٍ، الحَسَنِ بنِ عبْدِ اللهِ بنِ سَهْلٍ، العَسْكَريّ، المُتَوفَّى سَنةَ (395هـ). ألَّفَ العَسْكَريُّ الكِتابَ ليكونَ جامِعًا لمَعاييرِ الكِتابةِ وطُرُقِها وشُروطِها، شِعْرًا كانَتْ أو نَثْرًا، ثُمَّ دَلَّلَ على كَلامِه وأكَّدَه بذِكْرِ مُقْتَطَفاتٍ بَليغةٍ مِن الأدَبِ العَربيّ على مَرِّ عُصورِه.

(د) المَثَلُ السَّائِر في أدَبِ الكاتِبِ والشَّاعِرِ: لأبي الفَتْحِ، ضِياءِ الدِّينِ، نَصْرِ اللهِ بنِ مُحمَّدِ بنِ الأثيرِ، المُتَوفَّى سَنةَ (637هـ)، وقد وضَعَ كِتابَه ليكونَ مَرجِعًا في عُلومِ الكِتابةِ والبَلاغةِ والإنْشاءِ والشِّعرِ، ووضَعَ فيه ألوانَ المُحسِّناتِ، وصُوَرَ التَّشْبيهاتِ والمَجازِ، ونَحْوَ ذلك، وبَرْهَنَ على كلٍّ بما في جَعْبَتِه مِن الآياتِ والأحاديثِ والشِّعرِ والنَّثْرِ.

المَعاجِمُ اللُّغويَّةُ:

وهي أساسٌ لمَعْرفةِ دَلالاتِ الألفاظِ، وفَهْمِ مَعاني الجُمَلِ والتَّراكيبِ، إلى جانِبِ ما حَوَتْه مِن أشْعارِ الشُّعَراءِ، وأقوالِ الأُدَباءِ بوَجْهٍ عامٍّ، ومِن أمْثِلتِها: لِسانُ العَربِ لابنِ مَنْظورٍ، ومَقاييسُ اللُّغةِ لابنِ فارِسٍ، والقاموسُ المُحيطُ للفَيْروزابادِيّ، وغيْرُ ذلك.

الكُتُبُ المُتَرجَمةُ:

وهي مُتَنوّعةٌ وكَثيرةٌ؛ فبعضُها كُتُبٌ في الأدَبِ العَربيّ، مِثلُ: تاريخِ الأدَبِ العَربيّ لكارل بُروكْلمان، وقد تَرجَمَ الأجْزاءَ الثَّلاثةَ الأُولى مِنه الدُّكتورُ عبْدُ الحَليمِ مَحْمود -رَحِمَه اللهُ-. وإلى جانِبِ ذلك تُوجَدُ كُتُبٌ أدَبيَّةٌ كُتِبَتْ في آدابِ اللُّغاتِ الأخرى، وهذه تُفيدُ في التَّعرُّفِ على التُّراثِ الأدَبيّ للأُمَمِ الأخرى، وتَقِفُ القارِئَ على عَظَمةِ الأُمَّةِ العَربيَّةِ في أبْوابِ الأدَبِ"[24].

النَّثْرُ في اللُّغةِ

لَفْظةُ النَّثْرِ مَأخوذةٌ مِن المادَّةِ (نَثَر) الَّتي مِن دَلالاتِها: رَمْيُ الشَّيءِ مُتَفرِّقًا، ومِنه نَثْرُ الحَبِّ إذا بُذِرَ، ونَثْرُ اللُّؤْلُؤِ والجَوْزِ واللَّوْزِ والسُّكَّرِ في الوَلائِمِ والحَفَلاتِ ، والنُّثارُ -بالضَّمِّ- ما تَناثَرَ مِن الشَّيءِ"[25].

النَّثْرُ اصْطِلاحًا

رُبَّما أُخِذَ لَفْظُ "النَّثْرِ" عَلَمًا على ذلك النَّوْعِ مِن الكَلامِ الأدَبيّ مِن المَعنى اللُّغويّ للنَّثْرِ، المُتعلِّقِ بنَثْرِ اللُّؤْلُؤِ؛ فكأنَّ الخَطيبَ إذا خطَبَ في النَّاسِ خُطبةً بَليغةً أدَبيَّةً، فكأنَّه يَنثُرُ عليهم مِن اللَّآلِئِ والهَدايا، كما يَنثُرُ الآدِبُ -صاحِبُ المَأدُبةِ- على الحاضِرينَ. وكذلك سائِرُ النُّثَّارِ كأصْحابِ القِصَصِ والرَّسائِلِ والمَقاماتِ والرِّواياتِ وغيْرِها"[26].

وقد تَقارَبَتْ تَعْريفاتُ الاصْطِلاحيّينَ لمَفْهومِ "النَّثْرِ"؛ فقيلَ: هو الكَلامُ الخالي مِن الأوْزانِ والقَوافي، ويَقصِدُ به صاحِبُه التَّأثيرَ في نُفوسِ المُستمِعينَ، والَّذي يَحفِلُ مِن أجْلِ ذلك بالصِّياغةِ وجَمالِ الأداءِ.

24 ـ مختَلَف في تاريخ وفاته، وسيأتي ذكر ذلك

25 ـ الجوهري ،الصحاح تاج اللغة وصحاح العربيّة،2/ 822

26 ـ شوقي ضيف ،تاريخ الأدب العربي: الأدب الجاهلي،ص: 398

وقيلَ: هو الكَلامُ المَنْثورُ لا المَنْظومُ، الَّذي يَعْتمِدُ على الفِكْرِ والمَنطِقِ لا الخَيالِ والعاطِفةِ، يَتحكَّمُ فيه العَقْلُ والفِكْرُ أكْثَرَ مِن المَشاعِرِ والخَوالِجِ والأحاسيسِ، ومِنه: القِصَّةُ والرِّوايةُ، والمَسْرحيَّةُ والخُطبةُ، والرِّسالةُ والخاطِرةُ والمَقالُ"27.

وقيل: هو الكَلامُ الَّذي يُصوِّرُ العَقْلَ والشُّعورَ، ولا يَتَقيَّدُ بوَزْنٍ ولا قافيةٍ"28.

الفَرْقُ بيْنَ الشِّعرِ والنَّثْرِ

يَتَقاسَمُ الشِّعرُ والنَّثْرُ الأدَبَ العَربيَّ، إلَّا أنَّهما يَختلفانِ فيما بيْنَهما على جَميعِ المُسْتوَياتِ، سَواءٌ مِن جِهةِ الأديبِ ومَوهِبتِه، أو العَمَلِ الأدَبيِّ ذاتِه، أو في التَّأثيرِ في جُمْهورِ المُخاطَبينَ. ولا يَعْني هذا تَفْضيلَ أحَدِهما –الشِّعْر أو النَّثْر- على الآخَرِ"29.

فلِكلٍّ مِنْهما رِسالتُه ومَكانتُه ودَورُه في إثْراءِ الحَياةِ الأدَبيَّةِ والثَّقافيَّةِ بوَجْهٍ عامٍّ، ويُمكِنُ إجْمالُ أبْرَزِ الفُروقِ فيما بيْنَهما في النِّقاطِ التَّاليةِ:

1- مِن النَّاحيةِ التَّاريخيَّةِ: فإنَّ الشِّعرَ أسْبَقُ مِن النَّثْرِ -على الرَّاجِحِ كما سيأتي بَيانُه-، وقدِ اسْتَخدمَتْه الأُمَمُ -لا سيَّما الأُمَّةِ العَربيَّةِ- في التَّعْبيرِ الأدَبيِّ قبْلَ النَّثْرِ"30.

2- ومِن ناحيةِ الصُّورةِ والأُسلوبِ: فإنَّ الشِّعرَ يَخْتلِفُ عنِ النَّثْرِ اخْتِلافًا واضِحًا؛ فالشِّعرُ يَتَقيَّدُ بالأوْزانِ والقَوافي وقَوانينِهما، فيأتي على نَمَطٍ مُعيَّنٍ لا يُخالِفُه، بخِلافِ النَّثْرِ الَّذي تَحرَّرَ مِن رِبْقةِ الأوْزانِ والقَوافي، وإنِ اعْتَمَدَ على خَصائِصَ أُسلوبيَّةٍ أخرى تَكسِبُه الثَّوبَ الأدَبيَّ الَّذي يُقنِعُ العَقْلَ ويَستميلُ النَّفْسَ"31.

كما أنَّ طَبيعةَ الشِّعرِ تَعتمِدُ على الإيجازِ، كما تَتَحكَّمُ قَواعِدُه وأوْزانُه في انْتِقاءِ الكَلِماتِ، واخْتِيارِ تلك الكَلِمةِ على حِسابِ أُخْتِها، وإن كانَتْ أدَلَّ على المُرادِ مِنها.

وكذلك فإنَّ الشِّعْرَ تَغلِبُ عليه لُغةُ العاطِفةِ؛ ولِذا يَكثُرُ فيه الخَيالُ والأجْراسُ الموسيقيَّةُ الآخِذةُ، بخِلافِ النَّثْرِ الَّذي يَعْتمِدُ خِطابَ العَقْلِ -غالِبًا- ومِن ثَمَّ نَجِدُه يَميلُ إلى اعْتِمادِ لُغةٍ واضِحةٍ قَريبةٍ، يَقِلُّ فيها الخَيالُ، ويَكثُرُ فيها التَّقْريرُ .

-3ومِن ناحيةِ الحِفْظِ والنَّقْلِ: فإنَّ الشِّعْرَ أيْسَرُ في الحِفْظِ وأسْهَلُ في النَّقْلِ؛ ومِن ثَمَّ كانَتْ أقوالُ الشُّعَراءِ ودَواوينُهم أقْدَمَ وُجودًا، وأكْثَرَ شُيوعًا وانْتِشارًا.

-4ومِن ناحيةِ المُرونةِ والتَّطوُّرِ: فإنَّ النَّثْرَ أقْدَرُ على التَّطوُّرِ، وأطْوَعُ مِن الشِّعْرِ؛ إذِ النَّثْرُ يَعْتمِدُ العَقْلَ أكْثَرَ مِن العاطِفةِ، ويَتَحلَّلُ مِن الأوْزانِ والقَوافي، ومِن ثَمَّ كان أقْدَرَ مِن الشِّعْرِ على التَّطوُّرِ وأسْرَعَ.

-5ومِن النَّاحيةِ الموسيقيَّةِ فإنَّ الشِّعْرَ لُغةُ الغِناءِ والموسيقا، بخِلافِ النَّثْرِ؛ فإنَّه لا يَصلُحُ لِذلك؛ ولِهذا كانَتِ المَوْضوعاتُ الغِنائيَّةُ؛ كالغَزَلِ والنَّسيبِ والحَنينِ ونَحْوِها، أكْثَرَ تَعلُّقًا بالشِّعْرِ مِن النَّثْرِ"32.

أشْهَرُ الخُطَباءِ

تَوارَثَ النَّاسُ في عَصْرِ النُّبوَّةِ والخِلافةِ الرَّاشِدةِ تَعظيمَ مَكانةِ الخَطيبِ وأهَمِّيَّتَه؛ إذ لم يَطُلِ الأمَدُ بيْنَهم وبيْنَ الجاهِليَّةِ، بلْ كانَ كَثيرٌ مِن أصْحابِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ خُطَباءَ في الجاهِليَّةِ، كسُهَيْلِ بنِ عَمْرٍو، وأبي سُفْيانَ صَخْرِ بنِ حَرْبٍ، وثابِتِ بنِ قَيْسِ بنِ الشَّمَّاسِ وأبيه، كما نَبَتَتْ مَوْهبةُ كَثيرٍ مِن الصَّحابةِ في ظِلِّ الإسْلامِ، كالخُلَفاءِ الرَّاشِدينَ الأرْبَعةِ، وغيْرِهم مِن أمْثالِ خالِدِ بنِ الوَليدِ، وأبي عُبَيْدةَ عامِرِ بنِ الجَرَّاحِ، وعبْدِ اللهِ بنِ الزُّبَيْرِ.

---

27 ـ مدخل لدِراسة الأدب،ضمن مقررات كلية الآداب جامعة أم القرى،ص12

28 ـ أحمد الشايب،أصول النقد الأدبي،ص 328

29 ـ أحمد الشايب أصول النقد الأدبي،ص 328

30 ـ طه حسين ،من حديث الشعر والنثر،ص22- 23

31 ـ طه حسين وأحمد أمين وآخرون ،التوجيه الأدبي،ص137

32 ـ أحمد الشايب ،أصول النقد الأدبي،ص90- 91

مُمَيِّزاتُ الخَطابةِ وخَصائِصُها

اتَّسِمَتِ الخَطابةُ في عَصْرِ النُّبوّةِ والخُلَفاءِ الرَّاشِدينَ بعِدَّةِ سِماتٍ على الصَّعيدَينِ المَعْنويِّ واللَّفْظيِّ:

الخَصائِصُ المَعْنويَّةُ:

1- بُروزُ الجانِبِ الدِّينيِّ الدَّعَويِّ فيها، وهي السِّمةُ الأغْلَبُ.
2- وَحْدةُ المَوْضوعِ في الخُطبةِ الواحِدةِ.
3- تَعدُّدُ أغْراضِ الخَطابةِ وتَنوُّعُها؛ فمِنها الدِّينيَّةُ والسِّياسيَّةُ والاجْتِماعيَّةُ.
4- الاعْتِمادُ على الحُجَجِ والبَراهينِ، والرَّغْبةُ في الإقْناعِ الذِّهْنيِّ والتَّأثيرِ في العَقْلِ والنَّفْسِ.

الخَصائِصُ اللَّفْظيَّةُ:

1- المَيلُ إلى الإيجازِ، والتَّرْكيزُ مِن غيْرِ إخْلالٍ، والاعْتِمادُ على الفِقْراتِ القَصيرةِ الَّتي تَشْتمِلُ على جَوامِعِ الكَلِمِ رَغْمَ قِلَّةِ ألْفاظِها.
2- جَزالةُ الألْفاظِ وفَصاحةُ العِبارةِ؛ فلم يَسْتعمِلوا الغَريبَ الوَحْشيَّ ولا المُبْتذَلَ السُّوقيَّ.
3- الإكْثارُ مِن الاسْتِشهادِ بالآياتِ القُرآنيَّةِ والأحادِيثِ النَّبويَّةِ، والحِكَمِ والأمْثالِ والشِّعْرِ؛ وذلك لتَأكيدِ المَعاني وزِيادةِ تَأثيرِها في النُّفوسِ.
4- الاعْتِمادُ على الطَّبْعِ والفِطرةِ، وكَراهيَةُ التَّكلُّفِ والتَّصنُّعِ.
5- كانَتِ الأسْجاعُ تَأتي في خُطَبِهم على السَّجيَّةِ والطَّبيعةِ، مِن غيْرِ تَكلُّفٍ مِنهم، بلْ كانوا يَنْأونَ عنها ما اسْتَطاعوا.
6- تَصْديرُها بالحَمْدِ للهِ والثَّناءِ عليه، ثُمَّ الصَّلاةِ والسَّلامِ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ"-33

هذا الموضوع مهم جدًا لأنه سيوضح تأثير الأدب العربى فى العراق ، الذي يشبه البحر، وقد تأثر مشاهير الأدب من الحركات الإسلامية المختلفة ووجهات نظر دينية مختلفة. مثل الطوائف الإسلامية التي نشأت فى العراق خلال العهد فى النصف الثانى من القرن العشرين، وغيرهم،إذا جاز لنا أن نقسّم تاريخ الأدب العراقي إلى مراحل أو محطات، في الجانب المتعلق بالقصة والرواية خاصة، فإننا نتوقف عند أربع محطات رئيسة، عكس خلالها ملامح كل مرحلة وحاول أن يعبر عنها، وفقاً لاجتهاد كل قاص أو روائي.

كانت الأولى مرحلة التأسيس التي رافقت إطلالة العراق المعاصر على العالم بعين أخرى، بعد أن بات دولة بمؤسسات حديثة تعبر عن واقع بلاد خرجت من أتون نحو 6 قرون من الضياع، وألقت بظلالها الكثيفة على حياة الناس بشكل عام.غني عن القول أن بدايات فن القصة والرواية كانت على يد جيل محدد من الرواد، في مقدمتهم محمود أحمد السيد الذي أصدر أول رواية عراقية بعنوان «جلال خالد» عام 1928، بث خلالها أسئلته الوجودية حول الإنسان والموت والحياة وفقاً لما عايشه وتأثر به من أفكار عصره.بعد ذلك، توالت الأعمال الروائية والقصصية التي عبّرت عن واقع العراق في مرحلة الحكم الملكي الذي أنضج واقعاً ثقافياً مغايراً، نتيجة ظهور طبقة وسطى ووسط ثقافي وصحافي انشغل **التمهيد**

بيّنت العديد من الآيات القرآنيّة تنبّه ما خُلِق عليه الإنسان من صفات الشرّ: لتجنّبها وعدم الاستسلام لها، ومقاومتها بصفات الخير التي طبع عليه كذلك، وقد ذُكرت عدّة صفاتٍ في القرآن الكريم بطريق الذّم، بعرض أفعال الأشرار، وبما علمها الكثير من أنّها طِبَاع شرٍّ، ولذلك لا بدّ من الحرص من نتائجها، وعدم الاستسلام لها، والانتباه بأنّها شرٌّ، وكذلك فإنّ الحكمة من خَلْق الشّهوة والهوى؛ بيان قدرة الإنسان على المقاومة، ومحاربة الشيطان، وما يزيّنه من

33 - علي صبح وعبد العزيز شرف وعبد المنعم خفاجي ،الأدب الإسلامي المفهوم والقضية،ص 136

المعاصي، والمنكرات والجدير بالإنسان البحث عن طُرق جهاد نَفْسه، وطُرق تزكيتها، وتحقيق الطمأنينة والسّكينة فيها، والمُجاهدة في سبيل تحقيق ذلك، وعدم ظُلمها باتّباع الهوى والشيطان۔

قال الله تعالیٰ في سورة الأعراف:

"خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِيْن".

ذكر في هذه الآية ثلاثة مبادئ ومذاهب ، وهي تلخص نظام المجتمع الذي جاء به الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) للعالم ، والإنسان هو العضو الأساسي في هذا النظام من المجتمع. تلعب كل العادات والصفات الجيدة والسيئة للإنسان دورًا أساسيًا في تكوين وتدهور هذا النظام الاجتماعي۔

معنى الإيثَارلغةً:

الإيثَار مصدر آثر يُؤْثِر إيثَارًا، بمعنى التَّقديم والاختيار والاختصاص، فآثره إيثارًا اختاره وفضله، ويقال: آثره على نفسه، والشيء بالشيء خصه به۔([1])

معنى الإيثَار اصطلاحًا:

الإيثَار أن يقدِّم غيره على نفسه في النَّفع له، والدَّفع عنه، وهو النِّهاية في الأخوة.

الإيثارهو فضيلة للنَّفس بها يكفُّ الإنسان عن بعض حاجاته التي تخصُّه حتى يبذله لمن يستحقُّه، ([2])

الفرق بين الإيثَاروالسَّخاء والجود

ذكر ابن قيِّم الجوزية فروقًا بين كلٍّ مِن الإيثار والسَّخاء والجود، مع أنَّها كلَّها أفعال بذلٍ وعطاء۔ قال ابن القيِّم في مدارج السالكين:" وهذا المنزل : أي الإيثَار-: هو منزل الجود والسَّخاء والإحْسَان، وسمِّي بمنزل الإيثَار؛ لأنَّه أعلى مراتبه، فإنَّ المراتب ثلاثة:

إحداها: أن لا ينقصه البذل ولا يصعب عليه، فهو منزلة السَّخاء.

الثَّانية: أن يعطي الأكثر ويبقي له شيئًا، أو يبقي مثل ما أعطى فهو الجود.

الثَّالثة: أن يؤثر غيره بالشَّيء مع حاجته إليه، وهي مرتبة الإيثَار"۔([3])

التَّرغيب في الإيثارفي القرآن الكريم

يعتبر الإيثَار مِن محاسن الأخلاق الإسلاميَّة، فهو مرتبة عالية مِن مراتب البذل، ومنزلة عظيمة مِن منازل العطاء، لذا أثنى الله على أصحابه، ومدح المتحلِّين به، وبيَّن أنَّهم المفلحون في الدُّنْيا والآخرة.

قال الله تبارك وتعالى:

"وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ"۔([4])

قال الطَّبري: يقول تعالى ذكره: وهو يصفُ الأنصار: وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قبل المهاجرين، وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ يقول: ويعطون المهاجرين أموالهم إيثَارًا لهم بها على أنفسهم وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ يقول: ولو كان بهم حاجة وفاقة إلى ما آثَرُوا به مِن أموالهم على أنفسهم"۔([5])

وقال الله تعالى:

"لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ"۔([6])

يعني: لن تنالوا وتدركوا البرَّ، الذي هو اسمٌ جامعٌ للخيرات، وهو الطَّريق الموصل إلى الجنَّة، حتى تنفقوا ممَّا تحبُّون، مِن أطيب أموالكم وأزكاها. فإنَّ النَّفقة مِن الطَّيب المحبوب للنُّفوس، مِن أكبر الأدلَّة على سماحة النَّفس، واتِّصافها بمكارم الأخلاق، ورحمتها ورقَّتها، ومِن أدلِّ الدَّلائل على محبَّة الله، وتقديم محبَّته على محبَّة الأموال، التي جبلت النُّفوس على

قوَّة التَّعلُّق بها، فمَن آثر محبَّة الله على محبَّة نفسه، فقد بلغ الذِّروة العليا مِن الكمال، وكذلك مَن أنفق الطَّيبات، وأحسن إلى عباد الله، أحسن الله إليه ووفَّقه أعمالًا وأخلاقًا، لا تحصل بدون هذه الحالة.

وقال تبارك وتعالى:

"لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ"۔(7)

فبين الله تبارك وتعالى أنَّ مِن البرِّ بعد الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب والأنبياء.. إطعام الطَّعام لمحتاجيه، وبذله لمريديه، مع حبِّه واشتهائه والرَّغبة فيه، وقد جاء به الله تعالى -أي: إطعام الطَّعام- بعد أركان الإيمان مباشرة، وفي ذلك دلالة على عظمته وعلو منزلته.

قوله (على حبِّه): هو أن تتصدق وأنت صحيح شحيح، تأمل البقاء، وتخشى الفقر.

التَّرغيب في الإيثار في السُّنَّة النَّبويَّة

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"إنَّ الأشعريِّين إذا أرملوا في الغزو، أو قلَّ طعام عيالهم بالمدينة جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد، ثمَّ اقتسموه بينهم في إناء واحد بالسَّويَّة، فهم منِّي، وأنا منهم "۔(8)

يقول العيني: "فيه منقبة عظيمة للأشعريين من إيثارهم ومواساتهم بشهادة سيدنا رسول الله وأعظم ما شرفوا به كونه أضافهم إليه ....وفيه فضيلة الإيثَار والمواساة"۔(9)

وقال أبو العبَّاس القرطبي: "هذا الحديث يدلُّ على أنَّ الغالب على الأشعريِّين الإيثَار، والمواساة عند الحاجة... فثبت لهم بشهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنَّهم...كرماء مؤثرون"(10)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"طعام الاثنين كافي الثَّلاثة، وطعام الثَّلاثة كافي الأربع. وفي لفظ لمسلم: طعام الواحد يكفي الاثنين، وطعام الاثنين يكفي الأربعة، وطعام الأربعة يكفي الثَّمانية " (11)

والمراد بهذه الأحاديث الحضُّ على المكارمة في الأكل والمواساة والإيثَار على النَّفس، الذي مدح الله به أصحاب نبيِّه، فقال: "وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ".(12) ولا يُراد بها معنى التَّساوي في الأكل والتَّشاح؛ لأنَّ قوله عليه السَّلام: 'كافي الثَّلاثة' دليل على الأثرة التي كانوا يمتدحون بها والتَّقنُّع بالكفاية، وقد همَّ عمر بن الخطَّاب في سنة مجاعة أن يجعل مع كل أهل بيت مثلهم، وقال: لن يهلك أحد عن نصف قوته.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

"جاء رجل إلى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، أي الصَّدقة أعظم أجرًا ؟ قال: أن تصدَّق وأنت صحيح شحيح، تخشى الفقر وتأمل الغنى، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم ، قلتَ: لفلان كذا، ولفلان كذا، وقد كان لفلان "۔ (13)

قال ابن بطَّال: "فيه أنَّ أعمال البرِّ كلَّما صعبت كان أجرها أعظم، لأنَّ الصَّحيح الشَّحيح إذا خشي الفقر، وأمَّل الغنى صعبت عليه النَّفقة، وسوَّل له الشَّيطان طول العمر، وحلول الفقر به، فمَن تصدَّق في هذه الحال، فهو مؤثر لثواب الله على هوى نفسه، وأمَّا إذا تصدَّق عند خروج نفسه، فيخشى عليه الضِّرار بميراثه والجوار في فعله"۔(14)

وعن جابر بن عبد الله حدَّث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنَّه أراد أن يغزو فقال:

"يا معشر المهاجرين والأنصار إنَّ مِن إخوانكم قومًا ليس لهم مال ولا عشيرة، فليضمَّ أحدكم إليه الرَّجلين أو الثَّلاثة، فما لأحدنا مِن ظهرٍ يحمله إلَّا عُقْبَةٌ كعُقْبَةِ. (يعني: أحدهم). فضممْتُ إليَّ اثنين أو ثلاثةً، قال: ما لي إلَّا عُقْبَةٌ كعُقْبَةِ أحدهم مِن جملي"۔[15]

فوائد الإيثَار

للإيثَار فوائد عظيمة وثمار جليلة يجنيها أصحاب هذا الخُلُق العظيم منها:

1 دخولهم فيمن أثنى الله عليهم مِن أهل الإيثَار، وجعلهم مِن المفلحين.

2 الإيثَار طريق إلى محبَّة الله تبارك وتعالى.

3 تحقيق الكمال الإيماني، فالإيثَار دليلٌ عليه، وثمرة مِن ثماره.

4 ومِن أعظم الثِّمار والفوائد: أنَّ التَّحلِّي بخُلُق الإيثَار فيه اقتداءٌ بالحبيب محمَّد صلى الله عليه وسلم.

5 أنَّ المؤْثر يجني ثمار إيثاره في الدُّنْيا قبل الآخرة وذلك بمحبَّة النَّاس له وثناؤهم عليه، كما أنَّه يجني ثمار إيثاره بعد موته بحسن الأحدوثة وجمال الذِّكر، فيكون بذلك قد أضاف عمرًا إلى عمره.

6 الإيثَار يقود المرء إلى غيره مِن الأخلاق الحسنة والخِلال الحميدة كالرَّحمة وحبِّ الغير والسَّعي لنفع النَّاس، كما أنَّه يقوده إلى تَرك جملةٍ مِن الأخلاق السَّيِّئة والخِلال الذَّميمة كالبخل وحبِّ النَّفس والأَثَرَة والطَّمع وغير ذلك.

7 الإيثار جالبٌ للبركة في الطَّعام والمال والممتلكات.

8 وجود الإيثَار في المجتمع دليلٌ على وجود حس التَّعاون والتَّكافل والمودَّة، وفقده مِن المجتمع دليلٌ على خلوِّه مِن هذه الركائز المهمَّة في بناء مجتمعات مؤمنة قويَّة ومتكاتفة.

9 بالإيثَار تحصل الكفاية الاقتصاديَّة والمادِّيَّة في المجتمع، فطعام الواحد يكفي الاثنين، وطعام الاثنين يكفي الثَّلاثة، والبيت الكبير الذي تستأثر به أسرة واحدة مع سعته يكفي أكثر مِن أسرة ليس لها بيوت تؤويها وهكذا.

أقسام الإيثار

أولًا: أقسامه مِن حيث تعلُّقه بالغير

ينقسم الإيثَار مِن حيث تعلُّقه بالغير إلى قسمين:

القسم الأوَّل: إيثار يتعلَّق بالخالق

وهو أفضل أنواع الإيثَار وأعلاها منزلة، وأرفعها قدرًا، يقول ابن القيِّم: "والإيثَار المتعلِّق بالخالق أجلُّ مِن هذا -أي مِن الإيثَار المتعلِّق بالخلق- وأفضل، وهو إيثار رضاه على رضى غيره، وإيثار حبِّه على حبِّ غيره، وإيثار خوفه ورجائه على خوف غيره ورجائه، وإيثار الذُّل له والخضوع والاستكانة والضَّراعة والتملُّق على بذل ذلك لغيره، وكذلك إيثار الطلب منه والسُّؤال وإنزال الفاقات به على تعلُّق ذلك بغيره"۔[16]

ولهذا النَّوع مِن الإيثَار علامتان تدلان عليه، لا بدَّ أن تظهرا على مدَّعيه، وهما:

الأول: أن يفعل المرء كلَّ ما يحبُّه الله تعالى ويأمر به، وإن كان ما يحبُّه الله مكروهًا إلى نفسه، ثقيلًا عليه.

الثَّاني: أن يترك ما يكرهه الله تعالى وينهى عنه، وإن كان محبَّبًا إليه، تشتهيه نفسه، وترغِّب فيه.

اقول فهذين الأمرين يصحُّ مقام الإيثَار۔

صعوبة هذا الإيثَار على النَّفس:

جُبِلت النَّفس على الرَّاحة والدَّعة والميل إلى الملاذ والمتع، كما جُبِلت على البعد عن كلِّ ما يشقُّ عليها أو ينغِّص متعتها أو يحدُّ مِن ملذَّاتها، ولمَّا كان هذا النَّوع مِن الإيثَار يضادُّ ما جُبِلَت عليه النَّفس مِن الرَّاحة والدَّعة كان صعبًا عليها التَّلبُّس به، أو التَّخلُّق والتَّحلِّي بمعناه.

اقول مبيِّنًا صعوبة هذا النَّوع مِن الإيثَار وثقله على النَّفس:

ومؤنة هذا الإيثَار شديدة لغلبة الأغيار، وقوَّة داعي العادة والطَّبع، فالمحنة فيه عظيمة، والمؤنة فيه شديدة، والنَّفس عنه ضعيفة، ولا يتم فلاح العبد وسعادته إلَّا به، وإنَّه ليسيرٌ على مَن يسَّره الله عليه .

وإن كان هذا النَّوع مِن الإيثَار شديدٌ على النَّفس صعب على الرُّوح إلَّا أنَّ ثمراته وما يجنيه الشَّخص منه تفوق ثمرات أيّ نوع مِن الأعمال، فنهايته فوز محقَّق وفلاح محتوم، وملك لا يضاهيه ملك.

فحقيق بالعبد أن يسمو إليه وإن صَعُب المرتقى، وأن يشمِّر إليه وإن عَظُمَت فيه المحنة، ويحمل فيه خطرًا يسيرًا لملْك عظيم وفوز كبير، فإنَّ ثمرة هذا في العاجل والآجل ليست تشبه ثمرة شيء مِن الأعمال، ويسيرٌ منه يرقِّي العبد ما لا يرقى غيره إليه في المدَد المتطاولة، وذلك فضل الله يؤتيه مَن يشاء.

القسم الثَّاني: إيثار يتعلَّق بالخَلْق

وهذا هو النَّوع الثَّاني مِن أنواع الإيثَار مِن حيث تعلُّقه بالخَلْق.. وقد قسَّم ابن عثيمين هذا النَّوع مِن الإيثَار إلى ثلاثة أقسام:

الأوَّل:ممنوع

والثَّاني: مكروه أو مباح

والثَّالث: مباح

القسم الأوَّل:

وهو الممنوع وهو أن تؤثر غيرك بما يجب عليك شرعًا، فإنَّه لا يجوز أن تقدم غيرك فيما يجب عليك شرعًا فالإيثَار في الواجبات الشَّرعية حرام، ولا يحل لأنَّه يستلزم إسقاط الواجب عليك.

القسم الثَّاني:

وهو المكروه أو المباح فهو الإيثَار في الأمور المستحبة، وقد كرهه بعض أهل العلم، وأباحه بعضهم، لكن تَركُه أولى لا شكَّ إلَّا لمصلحة.

القسم الثَّالث:

وهو المباح وهذا المباح قد يكون مستحبًّا، وذلك أن تؤثر غيرك في أمر غير تعبُّدي أي تؤثر غيرك، وتقدِّمه على نفسك في أمرٍ غير تعبُّدي.

شروط هذا النَّوع مِن الإيثَار:

ذكر ابن القيِّم شروطًا للإيثَار المتعلِّق بالمخلوقين تنقله مِن حيِّز المنع أو الكراهة إلى حيِّز الإباحة ولعلَّنا نجملها فيما يلي([17]):

1 أن لا يضيع على المؤْثِر وقته.

2 أن لا يتسبَّب في إفساد حاله.

3 أن لا يهضم له دينه.

4 ألَّا يكون سببًا في سدِّ طريق خير على المؤْثِر.

5 أن لا يمنع للمُؤْثر واردًا.

فإذا توفَّرت هذه الشُّروط كان الإيثَار إلى الخَلْق قد بلغ كماله، أمَّا إن وُجِد شيء مِن هذه الأشياء كان الإيثَار إلى النَّفس أَوْلَى مِن الإيثَار إلى الغير، فالإيثَار المحمود ـ قول هو الإيثَار بالدُّنْيا لا بالوقت والدِّين وما يعود بصلاح القلب.

أقسام الإيثَار مِن حيث باعثه والدَّاعي إليه

الأوَّل:

قسم يكون الباعث إليه الفطرة والغريزة: كالذي يكون عند الآباء والأمَّهات وأصحاب العِشْق، وهذا كما يقول عبد الرَّحمن الميداني الباعث إليه فطري في النُّفوس ينتج عنه حبٌّ شديدٌ عارم، والحبُّ مِن أقوى البواعث الذَّاتية الدَّافعة إلى التَّضْحية بالنَّفس وكلُّ ما يتَّصل بها مِن مصالح وحاجات مِن أجل سلامة المحبوب أو تحقيق رضاه، أو جلب السَّعادة أو المسرَّة إليه.

تقول أمُّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها: " جاءتني مسكينة تحمل ابنتين لها، فأطعمتها ثلاث تمرات، فأعطت كلَّ واحدة منهما تمرة. ورفعت إلى فيها تمرة لتأكلها، فاستطعمتها ابنتاها، فشقَّت التَّمرة، التي كانت تريد أن تأكلها بينهما، فأعجبني شأنها، فذكرت الذي صنعت لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: إنَّ الله قد أوجب لها بها الجنَّة، أو أعتقها بها مِن النَّار"-([18])اقول هذا الإيثَار دافعه حبُّ الأم لابنتها ورحمتها بهما.

الثَّاني:

وقسم يكون الدَّافع هو الإيمان، وحبَّ الخير للغير، على حساب النَّفس وملذَّاتها ومشتهياتها، وهو كما قال الميداني: ليس إيثارًا انفعاليًّا عاطفيًّا مجردًا، ولكنَّه إيثار يعتمد على محاكمة منطقيَّة سليمة، ويعتمد على عاطفة إيمانيَّة عاقلة.

درجات الإيثَار

ذَكَر أبو إسماعيل الهرويُّ في كتابه 'منازل السَّائرين' أنَّ للإيثار ثلاث درجات ([19]):

الدَّرجة الأولى:

أن تؤثر الخَلْق على نفسك فيما لا يَحْرُم عليك دينًا، ولا يقطع عليك طريقًا، ولا يفسد عليك وقتًا.

اقول في شرحه لهذه الدَّرجة: يعني أن تُقدِّمهم على نفسك في مصالحهم، مثل: أن تطعمهم وتجوع، وتكسوهم وتعرى، وتسقيهم وتظمأ، بحيث لا يؤدِّي ذلك إلى ارتكاب إتلافٍ لا يجوز في الدِّين

الدَّرجة الثَّانية:

إيثار رضى الله تعالى على رضى غيره، وإن عَظُمَت فيه المحن وثَقُلَت به المؤن، وضَعُفَ عنه الطول والبدن.

اقول في شرحه لهذه الدَّرجة: هو أن يريد ويفعل ما فيه مرضاته، ولو أغضب الخَلْق، وهي درجة الأنبياء وأعلاها للرُّسل عليهم صلوات الله وسلامه وأعلاها لأولي العزم منهم، وأعلاها لنبيِّنا صلى الله عليه وسلم.

الدَّرجة الثَّالثة:

إيثارُ إيثارِ الله تعالى: فإنَّ الخوض في الإيثَار دعوى في الملك، ثمَّ تَرْك شهود رؤيتك إيثار الله، ثمَّ غيبتك عن التَّرك.

اقول في شرحه لهذه الدَّرجة: يعني بإيثار إيثار الله: أن تنسب إيثارك إلى الله دون نفسك، وأنَّه هو الذي تفرَّد بالإيثَار لا أنت، فكأنَّك سلمت الإيثَار إليه فإذا آثرت غيرك بشيء فإنَّ الذي آثره هو الحقُّ لا أنت، فهو المؤثر حقيقة... وقوله: ثمَّ ترك شهود رؤيتك إيثار الله، يعني أنَّك إذا آثرت إيثار الله بتسليمك معنى الإيثَار إليه: بقيت عليك مِن نفسك بقيَّةٌ أخرى لابدَّ مِن الخروج عنها وهي: أن تُعْرِض عن شهودك رؤيتك أنَّك آثرت الحقَّ بإيثارك، وأنَّك نسبت الإيثَار إليه لا إليك... وقوله: ثمَّ غيبتك عن التَّرك. يريد: أنَّك إذا نزلت هذا الشُّهود وهذه الرُّؤية: بقيت عليك بقيَّةٌ أخرى وهي رؤيتك لهذا التَّرك المتضمِّنة لدعوى ملكك للتَّرك، وهي دعوى كاذبة؛ إذ ليس للعبد شيء مِن الأمر، ولا بيده فعل ولا ترك، وإنَّما الأمر كلُّه لله

موانع اكتساب صفة الإيثَار:

1: موانع اكتساب الإيثَار المتعلِّق بالخالق

يقول ابن قيِّم الجوزية في الموانع التي تجعل النَّفس تتخلَّف عن هذا النَّوع مِن الإيثَار:

والنَّقص والتَّخلُّف في النَّفس عن هذا يكون مِن أمرين:

(1) أن تكون جامدة غير سريعة الإدراك، بل بطيئة ولا تكاد ترى حقيقة الشَّيء إلَّا بعد عُسْر، وإن رأتها اقترنت به الأوهام والشُّكوك والشُّبهات والاحتمالات، فلا يتخلَّص له رؤيتها وعيانها.

(2) الثَّاني أن تكون القريحة وَقَّادة دَرَّاكة، لكن النَّفس ضعيفة مهينة إذا أبصرت الحقَّ والرُّشد ضَعُفَت عن إيثاره، فصاحبها يسوقها سوق العليل المريض: كلَّما ساقه خطوة وقف خطوة. أو كسوق الطِّفل الصَّغير الذي تعلَّقت نفسه بشهواته ومألوفاته، فهو يسوقه إلى رشده وهو ملتفت إلى لهوه ولعبه، لا ينساق معه إلَّا كَرْهًا.

2: موانع اكتساب الإيثَار المتعلِّق بالخَلْق

(1) ضعف الإيمان واليقين، فكما أنَّ الإيمان القويَّ يدفع صاحبه للبذل والعطاء والإيثَار، فإنَّ ضعفه يكون سببًا في الأثرة والشُّح.

(2) الشُّح المطاع، لذا ذكر الله عزَّ وجلَّ في الآية التي مدح فيها أهل الإيثَار أنَّ مَن يُوَقَّق في الوقاية مِن شحِّ نفسه فقد أفلح.

(3) حبُّ النَّفس، وتملُّك الأثرة على القلب.

(4) قسوة القلب وجموده، فمَن رَقَّ قلبه ولانت طباعه سَهُل عليه أمر الإيثَار.

(5) ضعف الهمَّة.

الوسائل المعينة على اكتساب الإيثَار المتعلِّق بالخالق:

ذكر ابن قيِّم الجوزية أمورًا تجعل مِن هذا الإيثَار أمرًا سهلًا على النَّفس، فقال:

والذي يسهِّله على العبد أمور:

أحدها: أن تكون طبيعته ليِّنة منقادة سلسة ليست بجافية ولا قاسية، بل تنقاد معه بسهولة.

الثَّاني: أن يكون إيمانه راسخًا ويقينه قويًّا؛ فإنَّ هذا ثمرة الإيمان ونتيجته.

الثَّالث: قوَّة صبره وثباته.

فبهذه الأمور الثَّلاثة ينهض إلى هذا المقام ويسهل عليه دركه.([20])

الوسائل المعينة على اكتساب الإيثَار المتعلِّق بالخَلْق:

قال ابن القيِّم: فإن قيل: فما الذي يسهِّل على النَّفس هذا الإيثَار، فإنَّ النَّفس مجبولة على الأَثَرَة لا على الإيثَار؟ قيل: يسهِّله أمور([21])

أحدها:

رغبة العبد في مكارم الأخلاق ومعاليها؛ فإنَّ مِن أفضل أخلاق الرَّجل وأشرفها وأعلاها: الإيثَار. وقد جبل الله القلوب على تعظيم صاحبه ومحبَّته، كما جبلها على بغض المستأثر ومقته، لا تبديل لخلق الله.

الثَّاني:

النُّفرة مِن أخلاق اللِّئام ومقت الشُّح وكراهته له.

الثَّالث:

تعظيم الحقوق التي جعلها الله سبحانه وتعالى للمسلمين بعضهم على بعض، فهو يرعاها حقَّ رعايتها، ويخاف مِن تضييعها، ويعلم أنَّه إن لم يبذل فوق العدل لم يمكنه الوقوف مع حدِّه؛ فإنَّ ذلك عَسِر جدًّا، بل لا بد مِن مجاوزته إلى الفضل أو التَّقصير عنه إلى الظُّلم، فهو -لخوفه مِن تضييع الحقِّ، والدُّخول في الظُّلم- يختار الإيثَار بما لا ينقصه ولا يضرُّه، ويكتسب به جميل الذِّكر في الدُّنْيا، وجزيل الأجر في الآخرة مع ما يجلبه له الإيثَار مِن البركة وفيضان الخير عليه، فيعود عليه مِن إيثاره أفضل ممَّا بذله، ومَن جرَّب هذا عرفه، ومَن لم يجرِّبه فليستقرئ أحوال العالم، والموفَّق مَن وفَّقه الله سبحانه وتعالى.

1 كتاب الكليات،أبي البقاء الكفوي ،38/1

2 التعريفات،الجرجاني ،59/1

3 مدارج السَّالكين،ابن القيِّم ،292/2

4 الحشر: 9

5 الطَّبري ،جامع البيان،527/22

6 آل عمران: 92

7 البقرة: 177

8 مسلم ،مِن حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه،2500

9 العيني ،بدرالدين،عمدة القاري شرح صحيح البخاري،44/13

10 المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم،452/6

11 مسلم ،مِن حديث أبي هريرة رضي الله عنهما،2059

12 الحشر:9

13 مسلم، مِن حديث أبي هريرة رضي الله عنه،1032

14 شرح صحيح البخارى،ابن بطال، 471/9

15 أبو داود،2534، مِن حديث جابر ابن عبد الله رضي الله عنهما

16 طريق الهجرتين وباب السَّعادتين،ابن القيِّم،450/1

17 ابن القيِّم ،طريق الهجرتين وباب السَّعادتين،446/1

18 مسلم ،مِن حديث عائشة رضي الله عنها،2630

19 منازل السَّائرين،عبد الله الأنصاري الهروي ،ص 57

20 ابن قيِّم الجوزية ،طريق الهجرتين وباب السَّعادتين،450/1

21 ابن قيِّم الجوزية ،طريق الهجرتين وباب السَّعادتين،448/1